عبقرية توارى الذات (*)

وحدتنى بعد الرحلة التى حاولتها إبحاراً فى عالم الذات، أو متقصيا لها فى " عيون الناس " .. وجدتنى مشدودا لبيتى شعر لشيخى وأستاذى وإحدى علامات القرن الماضى فى مصر، الأستاذ الكبير الراحل محمد عبد الله محمد .. المحامى الأشهر والفقيه الفذ والمفكر الفيلسوف الأديب الشاعر ..

يقول فى أولهما، بقصيدة " نظارتى " أولى قصائد ديوانه " العارف " ..

مادا ترى الأرضَ إنْ ترصدها من زُحلٍ
وهل ترانى وأبْعادى وأمْحادى ؟!

هذا رجل، أو قل حكيم، يقف متأملاً فى وقار وتواضع، يلفت نظر نفسه إلى وهم ما يعتقد هو - أو يعتقد الآدمى - أنه أجاد يصورها لنفسه وقد يتعبدها ويتيه معجبا بها وبنفسه دون أن يدرك أنه كله، وبعمله جميعا، ذرة من نقطة فى بحر فى محيط أعظم فى كون هائل !! .. ماوزن وماقيمة وما حجم وما أثر ما يعتقد الآدمى أنه المجد المخلد الذى يحفر اسمه على جدار الزمن ؟! .. أليس أدعى لمزيد من فهم الواقع الحقيقى أن يتساءل ماذا تراه يبدو - هذا المجد التليد الذى يتوهمه أو يعتقده - لراصد الأرض الذى يطل عليها ويتأملها ويتفحصها من السموات العلى .. أترى هذا الراصد من

(*) الجمهورية ٢٠٠٢/١٠/٧

الكوكب زحل يرى هذا الآدمى المتضخم الموهوم .. أبعاده ومقاساته .. أعماله وأمجاده ؟! أم أننا نبالغ ونضخم أنفسنا ونتصور كل همسة أو إيماءة أو حركة أو عمل لنا وكأنه الدنيا بأسرها ومجدها الزاهى التليد الذى لاسابقة له ولا لاحقة عليه ولا شىء بعده !!، وأنه بعظمته وجلاله - الذى نتوهمه !! - هو قبلة التفات واهتمام وأنظار وتقدير وإعجاب العالم كله ؟!!! .

من على البعد البعيد، تبدو الرؤية أصفى، والتبين أوضح، والفهم أنقى لأنه مستخلص من شوائب ومداخلات وبوازع تعوق الرؤية وتشوش عليها وعلى الفهم الرائق الصافى عير المشوب بأوهام وخداعات وتهويمات النفس ومجاملات ومتناقصات الغير .. حين يبعد الآدمى يكون أقدر على الرؤية وأقدر على الفهم !!

فى قصيدة " المرايا "، بذات ديوان " العارف "، يقول الفيلسوف المحامى الشاعر محمد عبد الله محمد ..

إنى إلى البعدِ محتاجٌ لأفهمَهُ

إذا امّحىَ البعدُ لا فهمٌ ولا بصرُ

✿✿✿

لم يكن شعر الأستاذ محمد عبد الله محمد هو فقط الذى استدعانى، ولا كانت ذكرى رحيله من ثلاث سنوات التى اقتربت، ولا موعد ميلاده الذى يأتى هذا الأسبوع - هى فقط التى استدعتنى .. بل ولا حتى أفضاله علىّ التى لا تعد ولا تحصى .. الذى استدعانى أكثر هو شخصية هذا العملاق العظيم الفذ واتصالها بالموضوع الذى فيه أبحرت أوحاولت الإبحار فى عالم الذات .. هذا العالم المهول الملىء بتضاعيف " المبالغة " فى النظر للذات، وتضخمها، وانشغال صاحبها بأمرها وصورتها فى عيون الناس ..

عزيز إن لم يكن محالا على الآدمى العادى أن يخرج من عالم الذات إلى خارجه .. الأنبياء والقديسون وقمم العلم الخالصة المخلصة ـ هم فقط القادرون على الحياة خارج عالم الذات الذى نقع جميعا صرعى فيه، ولذلك فمحال، وبعيد بعيد ـ ولن يكون فى أى مستقبل معقول، أن يصير هؤلاء أنماطاً شعبية ـ يمكن أن تقع عليها العين فى أى مكان يغشاه آدميون !!

محمد عبد الله محمد من هذه الفئة النادرة جداً جداً، ـ عملاق فذ فريد فى زمانه وفى مكانته، امتلأت حياته بصفحات مجيدة تدعو الآدمى العادى إلى الوقوع فى كل آفات تضخم الذات، ومع ذلك فإن هذا العملاق عاش وإلى أن رحل عن عالمنا صورة مجسدة للعظيم الذى توارت ذاته لأنه استطاع أن ينفذ من أسوارها ويخرج إلى خارج عالمها مع ما فى الحياة فى عالم اللا ذات من اختلافات هائلة بينه وبين عالم الذات الذى نعرفه !

كان من حظى أن اقتربت من هذا العملاق، صاحبته ولم أفارقه لربع قرن لم أنقطع عن الجلوس إليه والتأمل معه والتلقى منه وعنه .. كان دوحة لاتفرغ رطبها الجنية، صاحب موقف من الحياة .. لم تفلت منه قط حكمتها وغايتها واعتنام أيامها لمزيد من التأمل ومن الفهم .. أبحر الرجل فى عوالم شتى فصار عالما فى القانون، والأدب، والفكر، والفلسفة، والفلك، والتاريخ، والأديان .. تحس وأنت معه أنك مع موسوعة معارف حية، ليس حسبها ما اكتنزته من معلومات هائلة فى بحور شتى بلا شطآن، وإنما تدرك فى كل عطفة أن شيئاً لم يمر على هذا المفكر الفيلسوف دون أن يعمل فيه نظره ومبضعه ويشرّحه ويغوص فى صحبته إلى الجذور والأعماق حتى تنكشف له أستار من المحال أن تنكشف لسواه ..

حين اقتربت من هذا العملاق، اقتربت مشفقا مترددا لصيته البعيد الذى ملأ الدنيا .. فقد اجتمعت لهذا الحكيم الفيلسوف المفكر الأديب الشاعر، والقاضى المحامى الفقيه الضليع، كل أسباب تضخم الذات .. وهذا مخيف !! ــ .. شَعُرَ وسلم بامتيازه وتفوقه وأستاذيته وتفرده وعلمه الواسع الغزير غير المحدود ومواهبه الفذه، أساطين رجالات مصر .. عرف من تابعوه عن قرب أن نبوغه كان منذ أيام الدراسة، كان أول الخريجين بحقوق القاهرة / ١٩٣٠، وبدأ منذ هذا التاريخ رحلة عريضة فى الحياة .. افتتحها بالنيابة العامة فكان واحدا من أعمر بنيها وخدم فيها إلى أن صار محاميا عاما بمحكمة النقض، لم يترك موقعه إلى المحاماة، إلا وكان قد زين مجموعة القواعد القانونية المستخلصة من أحكام محكمة النقض من عام ١٩٣١ ـ ١٩٤٩، بتعليقات على الأحكام هى درر فريدة مورية بتمكنه الفذ .. وضعها الرجل فى صمت ووقار دون أن يدون عليها اسمه .. لم يجر الرجل وراء ما يتعلق به كل آدمى من وضع بطاقته والتذكير بنفسه على كل عمل حتى فى التافه المهين من الأمور !!!

من فرط خروج هذا الرجل خارج عالم الذات، لم يبدر منه قط ما يشير حتى إلى أقرب المقربين إليه أن هذه التعليقات له .. لم يبال بأن نسبتها إليه سوف تنطمر بمرور الزمن .. فى عالم اللا ذات لم يحفل الرجل بشىء من ذلك، مثلما لم يحفل بكل من وقعوا بالسرقة على كتابه الفريد " فى جرائم النشر " ــ .. هذا الكتاب الضافى هو عمدة المراجع فى بابه منذ أخرجه عام ١٩٥١ وحتى الآن .. درس عليه معظم الجيل الذهبى فى الإذاعة، وإليه يرجع حتى الآن المستشارون والقضاة والمحامون على مدى عشرات السنين، أكل الجميع على مائدة هذا الكتاب، ونقل البعض فصولا كاملة منه ضمنوها كتبا بأسمائهم دون أن يشيروا إلى " المصدر " ــ والرجل

لايضيق ولا يشكو ولا يتململ .. ولا يحاول قط أن يلفت الأنظار إلى ذاته .. ولا يذكر أحدا بنفسه .. على يديه تخرج عمالقة بذات المعهد الذى تخرج هو فيه .. منهم من شغل رئاسة الوزارة والبرلمان والجامعة العتيدة .. الدكتور رفعت المحجوب والدكتور عاطف صدقى والدكتور أحمد فتحى سرور ونقيب النقباء أحمد الخواجه والدكتور محمود نجيب حسنى الرئيس الأسبق لجامعة القاهرة وفقيه القرن فى القانون الجنائى .. إلى آخر أيام حياته كان يختلف إليه ـ مقرا بفضله ـ أعلام فى الفقه والفكر والسياسة .. أعطى أخطر المشورات فى أمهات المسائل وأخطر الأمور !! ـ فى صمت ووقار بلا استعراض .. اضطلع بأخطر قضايا العصر، واحتاز مكانة لم أجد على مدار عمرى أحدا قد احتازها .. بيد أن الرجل لم يزه بنفسه ولم يفارق تواضعه قط ..

أسرع ما يسارع إليه الآدمى ـ التماس الشكل أو المظهر الذى يصادف حجمه أو ما يعتقد أو يتصور أو يتوهم أنه حجمه .. يسارع إلى ذلك فى زيه وملبسه، وفى سيارته، وفى مكتبه .. فى وقفته وفى جلسته وفى مشيته .. لا ينى ولا يهدأ فى محاولة لفت الأنظار إليه وإلى أبهته وحجمه ومكانته وصيته مخافة أن تفوت الآخرين .. على نقيض ذلك تماما كان محمد عبد الله محمد .. مفرط التواضع فى غير تظاهر ولا إدعاء، جم العطاء فى غير منٍّ، بسيط غاية البساطة، يجافى المظاهر حتى يكاد المحتك به يحسبه من المتصوفه ـ بل لعله كذلك فعلا .. يعمل كأنه يتعبد، ويتعقب مباحث ومصادر ومراجع ما يكتب فيه وكأنه تلميذ لايعرف ولم يعرف شيئا، يخاصم عامدا أى مظهر من مظاهر الفخامة أو الأبهة أو لفت الأنظار .. حتى فى أسلوب كتابته .. مهاجر عامد للألفاظ الفخمة والعبارات المزخرفة فى إيمان عميق بأن ذلك يصرف عن

المعنى وعن الفكرة .. الأدب فى نظره منبعه الصدق الذى لا تكلف فيه ولا فى عبارته ولا فى لفظه .. الذى ينصرف إلى الاعتناء بألفاظ ينفصل دون أن يدرى عن المعنى الذى يستهدفه، تماما مثلما ينصرف الآدمى عن غاياته الحقة حين يتضخم إحساسه بذات أو التفاته إليها .

برغم اقترابى الحميم منه، لم يستعرض ولم يذكر أمامى قط عملين هائلين له كفيلين بخلود صاحبهما .. وقعت عليهما بالمصادفة البحتة وبذلت معه جهودا مضنية ليوافق على طباعتهما وتقديمهما إلى الناس حتى لا ينطمرا ويضيعا بمضى الزمن وضياع المخطوطات .. مقالاته فى " معالم التقريب " بين المذاهب الإسلامية .. ماكدت أجمعها فى كتاب حتى صار رفيقى يلازمنى وألازمه .. حين غادرت مصر فى ١٩٩٠/٦/٢٧ إلى الولايات المتحدة لإجراء جراحة دقيقة بالقلب، لم أصحب معى غير القرآن المجيد وكتاب " معالم التقريب " .. هذا الكتاب إحدى علامات هذا القرن، ولو كان لغير محمد عبد الله محمد هو وأشعاره الفلسفية العمودية التى وقعت عليها هى الأخرى مصادفة وكابدت معه حتى نشرتها له فى ديوانيه " العارف " و " الطريق " - .. لو كان هذان العملان لغير محمد عبد الله محمد لملأ الدنيا تيها وافتخارا ولفتا وذكرا وتنويها .. " معالم التقريب " كتاب لم أصادف مثله عمقا وفهما للقرآن الحكيم وتحليقا فى روحه وأحكامه ومعانيه، واستهدافا جادا للتقريب بين المسلمين .. والتقريب إجمالا هو اتجاه جاد داخل الإسلام، مجرد تماما من اللون الطائفى أو الإقليمى، للتخلص من العداوة معلنة أو خفية بين أهل المذاهب صيانة لوحدة المسلمين التى تدور على محورين : أولهما التسليم بحقوق عامة للمسلم فى كل بلاد الإسلام - وأهمها عصمة دمه وماله وعرضه وألا يظن به

السوء، وثانيهما التمسك بأخوة المسلم رغم اختلاف مذاهب ومدارس الفكر،لأن الإسلام ليس دين العجائز، ويعنيه إنجاب العقول الجديدة اليقظة والمختلفة، والخلاف المذهبى حين يصبح عداوة يكون قد صار أهواء ومصالح لا تواجه إلا بالاعتياد على تذكر أنه لا خلاف على الأساسيات، فإله الجميع واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد، وقبلتهم واحدة، وهذا هو رأس مال كل مسلم، ولا بد من تذكره لكى تتجه قلوب المسلمين وعيونهم إلى المستقبل المشرق الذى ينتظرهم إذا تآخوا وتحابوا، ولا يسمح التقريب بأن يشغل المسلمين بأنفسهم عن وحدة مستقبلهم.. وفى زماننا كما فى أزمنة سابقة يتسنم المال قمة القيم واقعاً وفعلا ويجب أن يلتفت أهل الدعوات الإسلامية إلى تأثير المال ومعه هبوط الخامة البشرية وكسل الإنسان، فليس يجدى محاولة رد المسلمين الآن إلى بساطة الحياة التى كان عليها المسلمون الأوائل .

نعم إننا كآدميين مدفوعون بدافع فطرى لا يهدأ نحاول أن نصبح على صورة أفضل، وهذا الدافع النظرى هو وراء ملة إبراهيم ووراء دين محمد، فنحن نعبد خالق الكل سبحانه استجابة لفطرته تلك التى فطر عليها النوع الإنسانى والتى هى أصل الأديان وقوامها .

* * *

أما أشعار محمد عبد الله محمد، فقصة أخرى تكشف عن موهبة تطاول - بلا أدنى مبالغة - موهبة أبى العلاء المعرى .. مضافاً إليها خبرات ومعارف عشرة قرون هى الفاصل الزمنى بين الرجلين .. ظل محمد عبد الله محمد يرصف هذه الأشعار - وكلها عمودية وفى الفكر والحكمة - على مدى سبعين عاماً متصلة، يحتفظ بمخطوطاتها لنفسه دون أن يسارع بها عارضاً متباهياً إلى الناس .. أعرف أناساً يحبون حبواً فى الشعر، ولا يجيدون نظماً ولا معنى، ومع ذلك ما

إن يكتبوا عشرة أبيات حتى تسبقهم إلى صفحات الصحف يسلكون لنشرها وعرض أنفسهم كل سبيل ..

صورة محمد عبد الله محمد صورة نادرة، بالغة الندرة .. سبعون عاماً أو تزيد، وهذه الثروة الشعرية الهائلة راقدة فى مخطوطات فى أرشيف الرجل، مع أنها لو نشرت تباعاً لبوأته مكانة توازى أبا العلاء المعرى وتسلكه ضمن عمالقة شعراء عصرنا .. كان علىّ أن أناضل مناضلة حقيقية مع الرجل ليتركنى أذهب إلى المطبعة بهذه الأشعار التى تاه بها كل من اطلع عليها من أصدقائى الأدباء والنقاد !!

ما كان للرجل أن يصبر سبعين عاماً وزيادة على نظم هذا الشعر الرائع الرصين، والاحتفاظ به دون عرض، مالم يكن عائشاً فى الواقع والحقيقة خارج عالم الذات، منصرفاً عما يغرق ويتصارع فيه الناس من أجل الظهور وطلب الصيت والمكانة واستقبال الإطراء والإعجاب . نفهم هذه القدرة حين نتأمل فلسفة هذا العملاق الفذ الشاخصة فى تصاعيف ما كتبه من أشعار . وأيضا فى " معالم التقريب " بين المذاهب الإسلامية .. يلمس المتأمل حساسية مفرطة لدى الرجل إزاء الانصراف للذات وطلب الصدارة والوجاهة .. مما توقف عنده فى " معالم التقريب " كاشفا عن فلسفته وموقفه من الحياة، ما أسماه " ظاهرة طبيب الملايين " .. هذه النزعة الصادرة عن وهم الذات أنها المتفردة المتفوقة مالكة الوصفات السحرية لمعالجة ملايين البشر ـ هذه النزعة هى فى الواقع رغبة غريزية فى التصدر والريادة والأهمية والخروج من بحر العاديين من الناس إلى دائرة الصفوة . بإحساس كاذب فى معظم الأحيان بالعلم والخبرة والجدارة والتفوق !! .. فكرة " المكانة " مطلب لدى الناس قديم .. يقتتل عليه الجميع، ويرهقون أنفسهم وأهلهم وذويهم وأشياعهم من أجله ـ .

يتشدقون بالمساواة، ولكنها عندهم مجرد كلمة تقال سرعان ما ينفلت ملقيها منها ومن تبعاتها فى سعى محموم - بالوعى واللاوعى - للتصدر وطلب الرفعة والمكانة وعلو القدر والمنزلة والرعامة والريادة وحفر اسمه على جدار الزمن !!

عرف محمد عبد الله محمد أن هذا كله سراب .. لم تصرفه ذاته قط عن الموضوع .. عن القيام بدوره فى الحياة فى صمت وتواضع ووقار .. لم يدع علما ولا فهما ولا حكمة، وإنما عاش حياته يتأمل فى المحراب ساعيا إلى فهم يقول إنه لم يدركه أبدا .. فى ديوانه " العارف " يقول ..

مهما تفكّرتَ لم تدركْ سوى صلةٍ
ما بين فعلٍ وفعلٍ خلفها فعلُ
لقد جلوت كثيراً هل ترى أحداً ..
إن الحفاءَ كثيفٌ حول ما نجلو
من الطلالِ نَلُمُّ النور - داخِلَنَا
ندعو اليقين الذى يدنو ويبتعد